

سورة القدر

— مَكِّيَّة —

[مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ]

بيان عظم ليلة القدر وفضلها وما أنزل فيها.

[التَّفْسِيرُ]

١ - إنا أنزلنا القرآن جملة إلى السماء الدنيا كما ابتدأنا إنزاله على النبي - صلى الله عليه وسلم - في ليلة القدر من شهر رمضان.

{إنا أنزلناه} الضمير هنا يعود إلى الله عز وجل، والهاء في قوله {أنزلناه} يعود إلى القرآن، وذكر الله تعالى نفسه بالعظمة {إنا أنزلناه} لأنه سبحانه وتعالى العظيم الذي لا شيء أعظم منه، والله تعالى يذكر نفسه أحياناً بصيغة العظمة مثل هذه الآية الكريمة {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ومثل قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: ٩] . ومثل قوله تعالى: {إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} [يس: ١١] . وأحياناً يذكر نفسه بصيغة الواحد مثل {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري} [طه: ١٤] . وذلك لأنه واحد عظيم، فباعتبار الصفة يأتي ضمير العظمة، وباعتبار

الوحدانية يأتي ضمير الواحد. والضمير في قوله: {أنزلناه} ضمير المفعول به وهي الهاء يعود إلى القرآن وإن لم يسبق له ذكر .

قوله تعالى: {في ليلة القدر} من العلماء من قال: القدر هو الشرف كما يقال (فلان ذو قدر عظيم، أو ذو قدر كبير) أي ذو شرف كبير، ومن العلماء من قال: المراد بالقدر التقدير، لأنه يقدر فيها ما يكون في السنة لقول الله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم} [الدخان: ٣، ٤] . أي يفصل ويبين.

والصحيح أنه شامل للمعنيين، فليلة القدر لا شك أنها ذات قدر عظيم، وشرف كبير، وأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من الإحياء والإماتة والأرزاق وغير ذلك.

٢ - وهل تدري -أيها النبي- ما في هذه الليلة من الخير والبركة؟!

هذه الجملة بهذه الصيغة يستفاد منها التعظيم والتفخيم، وهي مطردة في القرآن الكريم، قال الله تعالى: {وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين} [النفطار: ١٧، ١٨] . وقال تعالى: {الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة} [الحاقة: ١ . ٣] . {القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة} [القارعة: ١ . ٣] .

٣ - هذه الليلة ليلة عظيمة الخير، فهي خير من ألف شهر لمن قامها إيماناً واحتساباً.

وهذه الجملة كالجواب للاستفهام الذي سبقها .
والمراد بالخيرية هنا ثواب العمل فيها، وما ينزل الله تعالى فيها من الخير والبركة على هذه الأمة، ولذلك كان من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

٤ - تنزل الملائكة وينزل جبريل عليه السلام فيها بإذن ربهم سبحانه بكلّ أمر قضا الله في تلك السنة رزقاً كان أو موتاً أو ولادة أو غير ذلك مما يقدره الله.

أي تنزل شيئاً فشيئاً؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع فتنزل الملائكة إلى الأرض شيئاً فشيئاً حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة، ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلاً على أن هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة كالمكان الذي فيه الصور، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة (١) ، يعني صورة محرمة؛ لأن الصورة إذا كانت ممتهنة في فراش أو مخدة، فأكثر العلماء على أنها جائزة، وعلى هذا فلا تمتنع الملائكة من دخول المكان، لأنه لو امتنعت

لكان ذلك ممنوعاً، فالملائكة تنزل في ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة.

وقوله تعالى: {يأذن ربهم} أي بأمره، والمراد به الإذن الكوني؛ لأن إذن الله . أي أمره . ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فقوله تعالى: {شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: ٢١] . أي ما لم يأذن به شرعاً، لأنه قد أذن به قدراً، فقد شرع من دون الله، لكنه ليس بإذن الله الشرعي، إذن هذه الآية {يأذن ربهم} أي بأمره القدري وقوله: {من كل أمر} قيل إن {من} بمعنى الباء أي بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة.

❖ - هذه الليلة المباركة خير كلها من ابتدائها حتى نهايتها بطلوع الفجر. {سلام هي} الجملة هنا مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، والتقدير: «هي سلام» أي هذه الليلة سلام، ووصفها الله تعالى بالسلام، لكثرة من يسلم فيها من الآثام وعقوباتها .

سورة البينة

- مَدَنِيَّة -

واختصاص هذه السورة بالذكر يقتضي اختصاصها وامتيازها بأمر معين؛ وذلك أن هذه السورة على وجازتها وقصرها اشتملت على أمهات أمور

العقيدة والدين من التوحيد والرسالة والإخلاص والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء وذكر الصلاة والزكاة والمعاد وبيان أهل الجنة وأهل النار، فكل هذه المعاني الأمهات موجودة في هذه السورة الوجيزة الجامعة. يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: قرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار لا قراءة تعلم واستذكار. وذلك بأن يقرأ شخص على آخر إما لأجل التعلم منه، أو الاستذكار، أو العرض عليه، كما يقرأ مثلاً متعلم القرآن على شيخه، فهذه قراءة تعلم، أو يقرأ على صاحبه للاستذكار والمراجعة. وقال ابن العربي رحمه الله: وفيه -أي: في هذا الحديث- من الفقه: قراءة العالم على المتعلم؛ لأن الأصل أن المتعلم هو الذي يقرأ على العالم، لكن يجوز أن يقرأ العالم على المتعلم. وقال بعض العلماء: إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي ليلى ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة.

[مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ]

ذكر منزلة رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ووضوحها وكمالها.

[التَّفْسِيرُ]

١ - لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين مفارقين إجماعهم واتفاقهم على الكفر حتّى يأتيهم برهان واضح، وحجة جليّة. فمجيئه صلى الله عليه وسلم هو الذي أحدث هذه الضجة فيما رسخ من عقائدهم، وتمكن من عوائدهم، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومكابرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم يصلون إليه بما كان لديهم، ولكنه ليس بمستحقّ أن يتبع، فإن ما هم فيه أجمل وأبدع، ومتابعة الأذى فيه أشهى إلى النفوس وأنفع.

وقوله تعالى: ((حَتَّى تَأْتِيَهُمْ)) عبر هنا بالفعل المضارع الذي يدل على الاستقبال، مع أنها في الماضي، فمعنى ((لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ)) أي: حتى أتتهم البينة، وتلك البينة التي تعرفهم وجه الحق هي رسول من الله، وأطلق على النبي صلى الله عليه وسلم بينة؛ لأنه هو الذي بين لهم ضلالهم وجهلهم، وهذا السياق فيه بيان نعمة الله على من آمن من الفريقين؛ إذ أنقذهم به.

٢ - هذا البرهان الواضح والحجة الجليّة هو رسول من عند الله بعثه يقرأ صحفاً مطهرة لا يمسه إلا المطهرون.

وجاء بصيغة النكرة {رسول} تعظيماً له؛ لأنه عليه الصلاة والسلام جدير بأن يعظم التعظيم اللائق به من غير نقص ولا غلو {رسول من الله} يعني

أن الله أرسله إلى العالمين بشيراً ونذيراً، قال الله تبارك وتعالى: {وأرسلناك للناس رسولا} [النساء: ٧٩] . وقال: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً} [الفرقان: ١] . فهو محمد عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام؛ لأن جبريل هو رسول رب العالمين إلى رسله موكل بالوحي ينزل به على من شاء الله من عباده.

المقصود: يتلو ما تضمنته الصحف، والمكتوب فيها، وهو القرآن الكريم، والدليل على أنه يتلو ما تضمنته تلك الصحف وهي القرآن الكريم، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن عن ظهر قلب لا من كتاب؛ لأنه كان أمياً عليه الصلاة والسلام.

٣ - في تلك الصحف أخبار صدق وأحكام عدل، ترشد الناس إلى ما فيه صلاحهم ورشدهم.

واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل، كما قال تعالى في وصف هذا القرآن الكريم: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢] .

٤ - وما اختلف اليهود الذين أعطوا التوراة، والنصارى الذين أعطوا الإنجيل، إلا من بعد ما بعث الله نبيّه إليهم، فمنهم من أسلم، ومنهم من تَمَادى في كفره مع علمه بصدق نبيه.

فمن النصارى من آمن مثل النجاشي ملك الحبشة، ومن اليهود من آمن أيضاً مثل عبد الله بن سلام . رضي الله عنه . فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن علم الله منه أنه يريد الخير، ويريد الدين لله آمن ووفق للإيمان، ومن لم يكن كذلك وفق للكفر، كذلك أيضاً من المشركين من آمن، وما أكثر المشركين من قريش الذين آمنوا، فصار الناس قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يزالوا على ما هم عليه من الكفر حتى جاءتهم البينة، ثم لما جاءتهم البينة تفرقوا واختلفوا كما قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم} [آل عمران: ١٠٥] .

٥ - ويظهر جرم وعناد اليهود والنصارى أنهم ما أمروا في هذا القرآن إلا بما أمروا به في كتابيهم من عبادة الله وحده، ومجانبة الشرك، وإقامة الصلاة وإعطاء الزكاة، فما أمروا به هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

٦ - إن الذين كفروا - من اليهود والنصارى ومن المشركين - يدخلون يوم القيامة في جهنم ماكثين فيها أبداً، أولئك هم شرّ الخليقة؛ لكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله.

{إن الذين كفروا} وعلى هذا فيقتضي أن أهل الكتاب كفار وهم (اليهود والنصارى) ، والأمر كذلك، فإن اليهود والنصارى كفار حين لم يؤمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإن قالوا: إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدعون لموتاهم بالرحمة وما أشبه ذلك من العبارات التي يتزلفون بها فإنهم كاذبون، إذ لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، بل لآمنوا برسولهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجد وصفه في التوراة والإنجيل كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث} [الأعراف: ١٥٧] . بل إن عيسى صلى الله عليه وسلم قال لبني إسرائيل {يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦] . فلما جاء هذا الرسول الذي بشر به عيسى بالبينات، قالوا: هذا سحر مبين، وكذبوه ولم يتبعوه إلا نفراً قليلاً من اليهود والنصارى، فقد آمنوا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم واتبعوه.

وقد بين الله ذلك تماماً في قوله: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون} [الأنفال: ٥٥] . وقال تعالى: {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} [الأنفال: ٢٢-٢٣] فهؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين هم شر البرية عند الله عز وجل، وإذا كانوا هم شر البرية فلن نتوقع منهم إلا كل شر، لأن الشرير ينبثق منه الشر، ولا يمكن أبداً أن نحسن الظن بهم، قد نثق بالصادقين منهم كما وثق النبي صلى الله عليه وسلم بالمشرك، عبد الله بن أريقط، حين استأجره ليدله على طريق الهجرة

٧ - إن الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحات أولئك هم خير الخليفة.

٧ - ثوابهم عند ربهم سبحانه وتعالى: جنات تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، ماكثين فيها أبداً، رضي الله عنهم لما آمنوا به وأطاعوه، ورضوا عنه لما نالهم من رحمته، هذه الرحمة ينالها من خاف ربه، فامتثل أمره، واجتنب نهيه.

[مِنْ فَوَائِدِ الْآيَاتِ]

• فضل ليلة القدر على سائر ليالي العام.

- الإخلاص في العبادة من شروط قبولها.
- الكفار شر الخليقة، والمؤمنون خيرها.
- اتفاق الشرائع في الأصول مدعاة لقبول الرسالة.